دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ
ISSN 1813-7733
المجلد الرابع, ديسمبر 2007م (ص75-96)

اللهجات العربية وعلاقتها باللغة العربية الفصحى : دراسة لغوية

محمد شفيع الدين*

ملخص البحث: البحث في مجمله يستعرض نظرة علماء العربية من المحدثين والقدامى إلى مفهوم اللهجات وكيفية نشأة اللغة العربية المشتركة (الفصحى) وما ورد عن علماء العربية (المحدثين والقدامى) من آراء في نظرتهم إلى العربية المشتركة (الفصحى) و لهجاتها، والصفات اللهجية في بناء الجملة في العربية المشتركة (الفصحى) وينتهي البحث إلى خلاصة مفادها أن دراسة اللهجات القديمة تعد من الأمور الصعبة في عصرنا، لأن المادة اللغوية الضخمة التي بين أيدينا لا تعين على ذلك كثيرا، نظرا لأن علماء العربية القدامى- رغم خدماتهم الجليلة للغة- لم يهتموا كثيرا بأمر اللهجات، واكتفوا في كتبهم بإشارات متفرقة إليها. ويلاحظ أن هذه الإشارات – في معظمها- تتصل بالدراسات الصوتية والدلالية ، وأن القليل منها يتصل ببناء الجملة. أما المحدثون فقد أدركوا أهمية اللهجات في ميدان الدرس اللغوي، وفائدتها في فهم طبيعة الفصحى، فأقبلوا على دراستها لمعرفة خصائصها المشتركة، انطلاقا من اعتقادهم بأن دراسة اللهجات العربية تساعد على تقريب المسافة بينها، وتؤدي إلى تعميق التفاهم بين أبناء الأمة العربية.

ومن الأمور المسلم بها في الدراسات اللغوية الحديثة اتصال اللغة بلهجاتها على مر العصور والأزمان، هذا يؤدي إلى انتقال كثير من صفات اللهجات إلى اللغة الفصحى، وعلى مختلف المستويات، حتى أصبحت الفصحى مزيجا من اللهجات، وأصبحنا نشاهد في بعض الأحيان وجود عدة صور للظاهرة الواحدة . وقد زرعت تلك الظلال اللهجية في بناء الجملة بدور الخلاف بين النحويين.

ولا شك في أن النظرة اللغوية التاريخيية تساعد على فهم بناء الجملة بشكل أفضل، وتخلص النحو العربي من الخلاف والتعليل والتأويل كما أن الأخذ بالصور الأوسع انتشارا والأحدث عهدا مدْعاة إلى تيسير النحو العربي، وتخليصه من التشعب. في ضوء ما تقدم عالج البحث المسائل التالية:

---

* أستاذ مساعد، قسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ، بنغلاديش.

1- نظرة علماء العربية إلى اللهجات.

2- نشأة اللغة العربية المشتركة (الفصحى).

3- الصفات اللهجية في بناء الجملة العربية.

نظرة علماء العربية (محدثين و قدامي) إلي اللهجات:

مفهوم اللهجة عند المحدثين: اللهجة - من وجهة نظرالمحدثين - مجموعة من الخصائص اللغوية يتحدث بها عدد من الأفراد في بيئة جغرافية معينة، وتكون تلك الخصائص على مختلف المستويات: الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وتميزها عن بقية اللهجات الأخرى في اللغة الواحدة، ولكن يجب أن تبقى تلك الخصائص من القلة بحيث لا تجعل اللهجة غريبة عن أخواتها، عسيرة الفهم على أبناء اللغة لأنه عند ما تكثر هذه الصفات الخاصة على مر الزمن لا تلبث هذه اللهجة أن تستقل، وتصبح لغة قائمة بذاتها، كما حدث للغة اللاتينية التي اندثرت و تفرع عنها لغات لها كيانها و خصائصها منها: الإيطالية و الفرنسية والإسبانية.وكما حدث للغة السامية الأم التي استقلت عنها لغات كالعربية والعبرية والآرامية وغيرها[1].

وبيئة اللهجة جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها المميزة، ويربط بينها جميعا مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور من حديث. وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات هي التي اصطلح على تسميتها اللغة. فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص[2].

وعندما تتعدد اللهجات في مجال لغوي واحد، يصعب وضع حدود لهجية بينها، لكن ذلك لا يعني بحال من الأحوال أن اللهجات لا تعرف الحدود مطلقا؛ لأن لكل لهجة مجموعة من الصفات المشتركة التي تميز بينها و بين جارتها، و من حقنا أن نتكلم عن وجود لهجات كلما لاحظنا عددا كبيرا من الخطوط التي تفصل بين الخصائص ولو بشكل تقريبي. وعندما لا يمكن رسم خطوط دقيقة بين منطقتين متجاورتين فإنه يبقى أن كلا منها تتميز في مجموعها ببعض السمات العامة التي لا توجد في الأخرى، فالتقسيم اللهجي يرجع إلي إحساس حقيقي لدى سكان الإقليم الواحد، إحساس بأنهم يتكلمون بصورة ما ليست هي الصورة التي يسير عليها سكان الإقليم المجاور[3].

بدأت دراسة اللهجات العربية في العصر الحديث على أيدي المستشرقين[4] الذين قدموا إلي العالم العربي للبحث في أحواله وثقافته: منذ القرن التاسع عشر،

وكانت في معظمها أعمالا متواضعة تقوم على جمع المادة ودراستها بطريقة تقليدية، لكنها لم تلبث أن تطورت واشتد عودها بفضل تقدم الدراسات اللغوية المعاصرة في الغرب واستفادتها من المخترعات الحديثة كاستخدام الأجهزة المختلفة والمختبرات في ميدان البحث اللغوي.

واهتم كثير من الباحثين العرب المحدثين بدراسة اللهجات العربية في أنحاء العالم العربي، وأسهمت الجامعات العربية بدورها في هذا الاهتمام لدى اللغويين العرب المحدثين بتأليف الكتب في اللهجات العربية قديما وحديثا[5].

كما قامت المجامع اللغوية العربية في كل من القاهرة ودمشق و بغداد بتشجيع الأبحاث و الدراسات في هذا المجال، حتى أن مجمع اللغة العربية في القاهرة خصص إحدى لجانه لدراسة اللهجات.

وينطلق هؤلاء العلماء في اهتمامهم بدراسة اللهجات العربية الحديثة من اعتقادهم بأن ذلك يؤدي إلي فهم طبيعة اللغة ومراحل نشوئها وتطورها وبيان تاريخها[6]، ويسهم في دراسة اللهجات العربية القديمة، فقد احتظت اللهجات الحديثة ببعض الصفات التي يمكن- أحيانا- إرجاعها بسهولة إلي لهجات عربية قديمة[7].

ويعتقد المحدثون أيضا بأن دراسة اللهجات العربية الحديثة والتعرف على خصائصها المشتركة يساعد على تقريب المسافة فيما بينها، وتضييق الفجوة بينها وبين اللغة الفصحى. وهذاكله له فائدته الكبيرة في تعميق التفاهم بين أبناء الأمة العربية، لأن اللغة من أقوى الدعائم لتوثيق الروابط بين الأفراد.

نظرة القدامى إلى اللهجات العربية:

تلك هي نظرة المحدثين إلي اللهجات العربية، فكيف كانت مناهج اللغويين القدماء في تناولهم إياها؟

من المعروف أن العرب كانوا أمة متفرقة إلي قبائل، وأن هذه القبائل قدانتشرت في أنحاء الجزيرة العربية، وكان لكل قبيلة استقلالها وكيانها الخاص، فأدى ذلك إلي انعزالها، وكان من أسباب نشأة اللهجات العربية القديمة. ومن المؤسف بالنسبة إلي تاريخ العربية قبل العصر الجاهلي أن يد الإهمال والنسيان قد امتدت إلي عناصرها، وبخاصة مايتصل باللهجات العربية فلم تصل إلينا نصوص نرجع إليها في تجلية معالم هذا التاريخ.

وفي العصر الجاهلي تمسكت كل قبيلة بصفتها الكلامية في حديثها العادي، و في لهجات التخاطب، ،لكن الخاصة من الناس في تلك القبائل لجأوا إلي اللغة

المشتركة في المواقف الجديدة، يخطبون بها و ينظمون الشعر بها، وينفرون من صفات اللهجات في مثل هذا المجال، حتي إذا عادوا إلي قبائلهم تحدثوا مع الناس في شؤونهم العامة بمثل لهجتهم، و هذا يعني أن اللغة عندهم مستويان: مستوى اللهجات وتتخذ أداة للتفاهم بين أفراد القبيلة في أمور حياتهم العامة، و مستوى اللغة المشتركة و تستعمل في المواقف الجادة، و منها: حديث العربي حين يجد نفسه أمام خليط من القبائل المختلفة في ناد أدبي أو محفل للتقاضي أو سوق للتجارة، و حين ينظم الشعر، أو يرسل الحكم والأمثال. وكان إتقان تلك اللغة موضع فخر بين رؤساء القبائل والخاصة من الناس. وفي عهد التدوين حظيت العربية بعلماء بررة أخلصوا لها، و قدموا خدمات جليلة من أجل جمعها من مصادرها الموثوقة والوقوف على أسرارها، و محاولة ضبطها وتقعيدها وبذلوا في سبيل ذلك جهودا مضنية و متواصلة تستحق منا كل إجلال و إكبار. وقد أخذوا مادتهم اللغوية عن طريقين : أولهما : الرحلة إلى البادية والاستماع إلى أهلها الذين سلمت ألسنتهم من اللحن لعدم اختلاطهم بالأعاجم وغيرهم من أبناء الأمم الأخرى. وثانيهما : الأعراب الذين عدوهم فصحاء، وكانوا يفدون إلى البصرة والكوفة.

انصبت جهود هؤلاء العلماء على اللغة المشتركة (الفصحى)، واستنكفوا أن يهتموا بأمر اللهجات على خطورته[8] فأهمل أمرها، ولم يرد عنها إلا القليل في ثنايا كتب اللغة والأدب والتاريخ، بل إن ما روي عنها جاءنا مبتورا ناقصا في معظم الأحيان، لا يعدو أن يكون مجرد إشارات متفرقة هنا و هناك، لا يمكن أن تصنع تاريخا أو تكون فكرة كاملة.

وهم في تناولهم للهجات لم يراعوا الدقة في نقلها، فلم ينسبوا- غالبا- كل لهجة إلى قبيلتها أوبيئتها، بل كانوا يعزون اللهجة أحيانا، ويكتفون بقولهم : إنها لغة لبعض العرب أحيانا أخرى[9].

وهذا كتاب سيبويه يمثل على ما ذهبنا إليه، حيث تردد في ثناياه عبارات مثل : وسمعناه ممن ترضى عربيته . . . . و ناس من العرب يقولون . . . . وزعم لي بعض العرب . . . . وقالت العرب . . . . وسألنا العرب . . . . فهذا سمعناه من العرب . . . . وهي لغة لبعض العرب. . . . وهي لغة. . . . كما قال بعض العرب. . . . و هي في مجموعها أقوال عامة لا تشير إلى قبيلة، ولا تحدد بيئة ولا ترقى إلي طموحات المحدثين في إسناد كل قول إلي لهجته ولو أن القدامى تنبهوا إلى هذا الأمر فعزوا اللهجة إلى قبيلتها لقدموا للعربية خدمة كبيرة تضاف إلى مآثرهم العديدة.

ويلاحظ أن القدماء في نقلهم عن القبائل أخذوا يفرقون بين قبيلة وأخرى، فينسبون الفصاحة إلى هذه وينكرونها على تلك، بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك فميزوا بين القبائل الفصيحة في درجات الفصاحة ورفضوا النقل عن القبائل المتطرفة التي كانت مساكنها حدود الجزيرة العربية لمجاورتها لسائر الأمم الذين حولهم، وقد عبر أبو نصر الفارابي عن هذا المنهج بقوله :

كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا، وأبينها إبانة عما في النفس، والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى و عنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، و عليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم فإنه لم يؤخذ لا من لخم، ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسان وأياد لمجارتهم أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية، ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم.

وآثر الرواة وعلماء اللغة الأخذ عن القبائل التي تسكن في وسط الجزيرة ونسبوا إليها الفصاحة وإجادة القول، لاعتقادهم بأن اللحن لم يتسرب إلى لغاتها. وأشهر تلك القبائل التي نقل عنها جل ما وصلنا من العربية الفصحى هي : قيس وتميم وأسد وهذيل و بعض كنانة و بعض الطائيين، وقد قام منهجهم على اعتبار أن الفصحى هي لهجات هذه القبائل على تعددها وطول الزمن بها.

و يلاحظ مما سبق أن العلماء قد أسسوا فصاحة القبيلة علي دعامتين :

الأولي : قرب مساكنها من مكة وما حولها، وبعدها عن أطراف الجزيرة العربية ومخالطة الأمم الأخرى.

والثانية : مقدار توغلها في البداوة، ولذلك رأيناهم يعتزون بلغة القبائل الحجازية بوجه عام وقبائل نجد ووسط الجزيرة، والقبائل البدوية المتوغلة في البداوة. ونستطيع أن نلمس ذلك بوضوح في كتاب سيبويه، فقد ذكرت فيه القبائل التالية: الحجاز، تميم، أسد، فزارة، طيء، بكر بن ربيعة، قيس، هذيل،

بنو العنبر، لكن معظم لهجاته تكاد تكون محصورة في هاتين الوحدتين الكبيرتين : الحجاز وتميم.

وأدى هذا المنهج في تقسيم القبائل العربية إلى فصيحة وأخرى غير فصيحة. إلي أن حاول عدد من علماء اللغة عقد موازنة عقلية بين اللهجات العربية فوجدناهم يقررون أن هذه اللغة أقيس من تلك للعلة الفلانية. ورأينا في كتبهم جملة من الأوصاف للهجات العربية كقولهم : لغة قليلة، ولغة رديئة، ولغة جيدة، ولغة شاذة، ولغة قبيحة، وهي اللغة الفصيحة. . . . إلى غير ذلك. والمعروف أن اللهجة فصيحة إذا أدت إلى التفاهم والاتصال بين أبنائها لكنهم أطلقوا تلك الأوصاف السابقة بالنظر إلى بعد اللهجة أوقربها من القرآن الكريم ولغة قريش، وقد عبر المبرد عن هذا المعنى بقوله[10] : "وكل عربي لم تتغير لغته فصيح على مذهب قومه، وإنما يقال بنو فلان أفصح من بني فلان أي أشبه لغة بلغة القرآن ولغة قريش، على أن القرآن نزل بكل لغات العرب".

ولم يكد ينقضي القرن الرابع الهجري حتى وسع الرواة وعلماء اللغة دائرة النقل، وظهر من بينهم من لم يفرق بين قبيلة وأخرى في جواز الأخذ عنهم والاحتجاج بأقوالهم. ويأتي في مقدمة هؤلاء العلماء اللغويين المشهورين ابن جني، حيث عقد في كتابه الخصائص بابا سماه: (اختلاف اللغات وكلها حجة) أشار فيه إلى بعض الصفات المشهورة عن لهجات القبائل، وأن بعض تلك الصفات أشهر من البعض الآخر وأكثر منها شيوعا في اللغة، ولكنها جميعا مما يحتج به، إلى أن قال ما نصه[11]: " إلا أن إنسانا لو استعملها لم يكن مخطئا لكلام العرب لكنه يكون مخطئا لأجود اللغتين، فأما إن احتاج إلى ذلك في شعر أو سجع فانه مقبول منه غير منعي عليه.

يتضح مما تقدم أن اللغة العربية في عصر الاحتجاج (حتى منتصف القرن الثاني الهجري للقبائل الحضرية ومنتصف القرن الرابع الهجري للقبائل البدوية) قد أخذت من قبائل متباينة: بعضها يسكن المدن كمكة والمدينة، وبعضها الآخر يسكن البادية. ومن المعلوم أن حياة المدينة بزراعتها وتجارتها وحرفها قد عرفت نوعا من الاستقرار ورقة العيش، فاختلفت عن البادية المعروفة بصعوبة الحياة وشظف العيش، نظرا لكثرة التنقل والأسفار والانعزال، واشتغال الناس بالرعي. واللغة تتأثر بالبيئة التي تعيش فيها كما تتأثر بالحياة الاجتماعية للأفراد. وفي كل بيئة لغوية ظروف تدفع إلى تطور الكلام وتغييره في كثير من الظواهر، وظروف أخرى تعمل على استقرار هذه الظواهر وتحصنها فلا يطرأ عليها تغيير، غير أن الغلبة دائما لعوامل التطور، فلا تبقى اللهجة في كل ظواهرها على حالة واحدة بعد مرور قرن أوقرنين، وهذا يفسر لنا اختلاف نسبة التطور في اللهجات المتباينة. ففي بعض اللهجات

نراه شديدا يصيب كل نواحي اللهجة وظواهرها، وفي بعضها الآخر نرى التطور لا يعدو أمورا معينة في هذه اللهجة[12].

وهكذا فإن التطور الذي أصاب لغات القبائل المستقرة في المدن المتحضرة في مختلف المستويات اللغوية اختلف من غير شك عن التطور الذي أصاب لغات القبائل البدوية المتنقلة، فحياة الحضر تطلب العمل على تحسين النطق وتخير العبارات والحرص علي الوضوح واجتناب اللبس، أما حياة البادية فتميل إلى السرعة في النطق وإيجاز في الكلام، مما كان له أثر واضح في اختلاف اللهجات العربية.

ويري اللغويون المحدثون أن جمع النصوص اللغوية من هذه اللهجات المختلفة قد أوجد بعض الخلافات التي ظهر أثرها في التقعيد النحوي، ولو اكتفى علماء اللغة بلغة القران الكريم ولغة العصر الجاهلي لتركوا كثيرا من الأمور الخلافية ولأراحونا من كثير من تأويلاتهم التي تبعد عن الفهم الصحيح للظاهرة اللغوية لكن أخذهم عن القبائل الست المشار إليها قبل سطور يعتبر تعددا في المكان، الأمر الذي كان له أثره في وضع القواعد النحوية[13].

ومن جهة أخرى يعتقد المحدثون أن الفترة الزمنية التي اعتمد عليها القدماء في جمع النصوص طويلة فقد جمعت هذه الفترة عصر الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي وجزءا من العصر العباسي، وتكون اللغة في هذه المدة الطويلة عرضة للتطور على مختلف مستوياتها الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية، والمفروض أن يكتفى بعصر واحد إذ لكل عصر سماته المميزة على مختلف المستويات اللغوية.

من هذا المنطلق عاب الدكتور تمام حسان على القدماء اضطراب منهجهم من ناحيتين:

الأولي : شمول دراستهم لمراحل متعاقبة من تاريخ اللغة العربية تبدأ من حوالي مائة وخمسين عاما قبل الإسلام وتنتهي بانتهاء ما يسمونه عصر الاحتجاج وفي هذه الحقبة لا تظل اللغة ثابتة على حالها بل تتطور من نواح مختلفة.

الثانية : خلطهم بين لهجات مختلفة ومحاولة إيجاد نحو عام لها جميعا[14].

نشأة اللغة العربية المشتركة (الفصحى) :

لا تختلف اللغة العربية في أسباب تكوينها عن تلك الأسباب العامة في نشأة اللغات. ومن الطبيعي إذا كنا نحاول التعرف على ظروف تكوين اللغة العربية المشتركة أن نمهد لذلك بالإجابة عن السئوال التالي: كيف تنشأ اللغات المشتركة؟

تميل اللغات في حياتها إلى اتجاهين متضادين:

الأول : يأخذ بها إلى الانقسام كما حدث للغة الجرمانية التي انبثق عنها الانجليزية والألمانية والهولندية.

والثاني : وهو الذي يهمنا هنا ويسير باللغات نحو التوحد أي أنه يؤدي إلى تكوين اللغات المشتركة، وذلك عندما تتهيأ الظروف لإحدى اللهجات فتتغلب على أخواتها في بيئة لغوية معينة، وهذا هو ما حدث للهجة باريس التي تغلبت على معظم أخواتها إلي أن أصبحت لغة الآداب والكتابة في فرنسا، وكذلك ما حدث للهجة لندن التي قدّر لها أن تتفوق على أشهر لهجات انجلترا مكونة اللغة الانجليزية المشتركة ويكون التوحيد اللغوي في العادة تلبية لحاجات اجتماعية عندما يتجه الأفراد إلى تعزيز التفاهم وتوثيق الروابط فيما بينهم، الأمر الذي ينتج عنه تقارب في صور الكلام. ولولا مقاومة المجتمع للتفكك اللغوي لأصبح العالم أمام حشد من صور التكلم التي لا تزيدها الأيام إلا تفرقا.

ومما يلحظه اللغويون أن نشأة اللغة المشتركة عملية تدريجية لا تتم في جيل أو جيلين وانما تتطلّب زمنا طويلا وظروفا اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية، وهي تعتمد دائما على الاتصال والاختلاط وللاشتراك في الحياة وقد ينشأ ذلك كله عن حرب تؤدي إلى اختلاط أناس من لهجات مختلفة، أو قد يكون ناتجا عن عقد الأسواق العامة التي يفد إليها الناس من بيئات لغوية مختلفة لقضاء حاجاتهم ومصالحهم، أو قد يكون ناتجا عن إقامة مناسبات دينية يجتمع فيها سكان ينتمون إلى أماكن مختلفة، فيكون ثمرة هذه اللقاءات المتكررة مع الزمن إذابة الفروق اللهجية بطريقة لا شعورية من المتكلمين والإسهام بدور فعال في توحيد اللغة.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن ننبه إلى أن دراسة اللغات المشتركة في العصور التاريخية تبين أنه ليس من السهل التعرف على أي العوامل كان أقوى أثرا في تكوينها، كما لا يعني بالضرورة أن هذه العوامل لا بد من توفرها مجتمعة في كل حالة.

وتتخذ اللغة المشتركة في بدء نشأتها مركزا معينا يتاح له من النفوذ السياسي والحضاري مالا يتاح لغيره، فتتطلع إليه المناطق الأخرى وتسلم له زمام القيادة وينزح إليه الناس فيؤثرون في لهجة أهله ويتأثرون بها، ثم تتبلور عملية الاتصال في نهاية الأمر إلى صورة من الكلام أساسها اللهجة المحلية الأصلية وقد امتزجت بعناصر أخرى واحدة من مختلف اللهجات الأخرى بحيث يتكون من هذا كله مزيج منسجم يقبله الجميع ويقبلون عليه، فينتشر في مختلف البيئات اللغوية وهو ما نسميه باللغة المشتركة[15].

و مراكز اللغات في العالم هي عادة عواصم الدول والمدن الكبرى التي تهيأت لها الظروف السياسية والاقتصادية والثقافية. واللهجة التي يتاح لها التفوق على أخواتها في أمة من الأمم تصبح عاجلا أو آجلا اللغة الرسمية للدولة أي اللغة القومية أو اللغة الفصحى.

وتتصف اللغة المشتركة بمعالم خاصة تميزها عن شقيقاتها اللهجات الأخرى التي سبق أن اتصلت بها وتفاعلت معها في تكوين هذا المزيج المنسجم . ويتفق المحدثون على أن أهم تلك الخصائص المميزة للغة المشتركة يمكن حصرها في صفتين :

الأول : أنها مستوى لغوي أرقى من لهجات الخطاب في غالب الأحوال أي أنها فوق مستوى العامة فلا يصطنعونها في شؤون حياتهم اليومية، وهم يتخذونها مقياسا لحسن القول وإجادة الكلام، فإذا سمعوا متكلمابها رفعوه فوق مستوى ثقافتهم.

الثاني : أن اللغة المشتركة و إن تأسست في بدء نشأتها على لهجة معينة والتمست بعض صفات اللهجات الأخرى وهضمته، إلا أنها قد فقدت مع الزمن كل المنابع التي استمدت منها عناصرها، وأصبح لها كيان مستقل، فلم تعد تنتسب إلي بيئة محلية تعينها، بل يشعر كل من السامع والمتكلم أنها أصبحت ملك الجميع لا يدّعيها قوم لأنفسهم، وهي لذلك تكتسب الاحترام من الناس جميعا[16].

ونعود لما بدأنا الحديث عنه فنتساءل : كيف نشأت اللغة العربية المشتركة؟ أمن كل اللهجات العربية أم من لهجة واحدة تحققت لها السيادة على غيرها من اللهجات؟ وإن كان هناك لهجة تغلبت على أخواتها، فما هذه اللهجة؟

بادىء ذي بدء نسارع فنقول، ليس لدينا معلومات عن طفولة العربية. وحديثنا عنها لا يتجاوز العصر الجاهلي الذي يؤرخ له بنحو مائة وخمسين عاما قبل ظهور الإسلام.

اختلفت آراء علماء العربية (قدامى و محدثين) في نظرتهم إلي العربية المشتركة ولهجاتها :

فقد ذهب القدامى إلى أن العربية المشتركة هي لغة قريش ذلك أن قريشا في نظرهم أفصح العرب وأصفاهم لغة، لأنهم كانوا يسكنون جوار البيت العتيق فمنحهم هذا الجوار سلطة روحية وأدبية، وكانت الوفود تأتيهم من مختلف القبائل العربية فيختارون من ألسنتها ما وافق طباعهم، وما أحسوا أنه صورة راقية من صور الفصحى، ويجتنبون الظواهر المسقة في هذه اللهجات فجاءت لغتهم خالصة من الأوشاب اللهجية، يقول أبو الحسين أحمد بن فارس(ت:941م)[17] : "أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم أن قريشا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة. وذلك أن الله- جل ثناؤه- اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمدا صلى الله عليه وسلم، فجعل قريشا قطّان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته . . . . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب".

ونقل السيوطي (ت:911م) عن أبي نصر الفارابي قوله : (كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما في النفس)[18]. كما نقل عن الفراء (ت:822م) قوله في هذا الشأن: "كانت العرب تحضر الموسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ"[19].

تلك جملة من أقوال القدماء تجمع على فصاحة قريش وعلو المنزلة التي رفعت إليها لهجتهم بفضل ما تجمع لديها من رقة اللسان وبعد عن الألفاظ الموحشة وبفضل ما اختارته من لهجات القبائل.

أما تأثر لهجة قريش بغيرها من لهجات القبائل نتيجة هذا الاتصال المستمر فأمر مسلم به في الدراسات اللغوية الحديثة حيث إن احتكاك اللهجات بعضها ببعض يقرب الشقة فيما بينها ويذيب الفوارق اللهجية، ويؤدي في النهاية إلى أن تتغلب إحدى هذه اللهجات على شقيقاتها متى أتيحت لها الظروف، كما يؤدي إلى أن تترك هذه اللهجات بصماتها في اللهجة الغالبة، لكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن نوافق القدماء على اندفاعهم في كلمتهم بأن لهجة قريش

أفصح اللهجات العربية إذ أن المفاضلة بين اللهجات لا تتفق مع وجهة النظر اللغوية الحديثة[20].

هذا وقد تبع فريق من المحدثين علماء العربية القدامى في نهجهم فوضع لهجة قريش في المنزلة العالية، وجعل لها السيادة علي غيرها من اللهجات العربية بفضل ما أتيح لأهلها من ثقافة وجاه وسلطان، وما انتقل إليها من عناصر لغوية زادتها ثراء. فهي عندهم اللغة الفصحى التي نظم بها الشعر وألقيت الخطب في المحافل والمحتمعات، وهي عندهم لغة القرآن والحديث والآثار الدينية والأدبية والعلمية.

وممن سار في هذا الاتجاه الدكتور علي عبد الواحد وافي إذ يقول في معرض كلامه عن تغلب لهجة قريش في اتصالها مع اللهجات العربية: هذا إلى أن لهجة قريش كانت أوسع اللهجات العربية ثروة وأغزرها مادة وأرقها أسلوبا، وأدناها إلى الكمال وأقدرها على التعبير في مختلف فنون القول وقد تم لها ذلك بفضل ما أتيح لأهلها من وسائل الثقافة والنهوض، وما أتيح لها من فرص كثيرة للاحتكاك بمختلف اللهجات العربية، وما انتقل إليها من هذه اللهجات من عناصر زادتها ثروة وسدّت ما كان يعوزها في بعض مناحي التعبير. إلى أن يقول: "وهذا هو ما حدث للغة قريش فقد ترتب على تغلبها على بقية اللهجات العربية أن أصبحت لغة الآداب عند جميع قبائل العرب، فبها كان ينظم الشعر وتلقى الخطب، وترسل الحكم والأمثال، وتدون الرسائل، وتتفاوض الوفود، ويتبارى الأدباء، وتجري المناقشة في النوادي والمؤتمرات في مختلف بلاد العرب ومختلف قبائلهم وقد تم لها ذلك قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم بزمن غير قصير"[21].

ويسلك الدكتور حسن عون طريقا مماثلا فيقول:

> "ومنذ نهضت قريش في أرض الحجاز وبدأت تسود غيرها من القبائل وتتزعمها في الدين والسياسة والاقتصاد أخذت لهجتها تسود اللهجات الأخرى وتتغلب عليها . . . وهي التي أورثتنا هذه الآثار الدينية والأدبية والعلمية، وهي أيضا لغة القرآن والحديث والأدب العربي"[22].

ونحن لا نستطيع أن نركن إلى مثل هذه الأقوال التي تجعل لهجة قريش وحدها لغة القرآن والحديث والآداب فقد سبق أن ألمحنا قبل سطور في حديثنا عن نشأة اللغات المشتركة بأن هذه اللغات وإن قامت في بدء نشأتها على أساس لهجة سادت غيرها لأسباب اجتماعية واقتصادية وثقافية، إلا أنها تصبح مع الزمن ملكا للجميع، وينسى الناس جذورها الأولى، ولا تعود تذكّرنا عند سماعها بمنطقة معينة أوبيئة محلية واحدة، ذلك أنها عندما يتاح لها أن تنتشر بين

الجماعات اللغوية الأخرى تأخذ العناصر المشتركة التي تدخل في تكوينها في الازدياد، وكلما ازدادت انتشارا كثرت الصفات التي تستعيرها من صور اللهجات المحلية[23].

وهكذا فإن اللغة العربية المشتركة وإن قامت في بداية نشأتها على أساس لهجة قريش إلا أنها أخذت على مر السنين خصائص لغوية من قبائل عربية مختلفة نتيجة اتصال قريش بهذه القبائل في مناسبات عديدة، فلم تعد اللغة المشتركة لهجة قريش وحدها بل هي مزيج منسجم من اللهجات العربية، ولنضرب في هذا المقام مثلا توضيحيا فنقول: من الحقائق المعروفة في دراسة اللهجات العربية القديمة أن ظاهرة النبر- أي تحقيق الهمز- من الخصائص البدوية التي اشتهرت بها قبائل وسط الجزيرة وشرقيها (تميم وما جاورها) وأن عدم النبر أي تسهيل الهمز أو تخفيفه- صفة حضرية امتازت بها لهجة القبائل في شمال الجزيرة وغربيها (قريش وما جاورها من القبائل الحجازية). وقد أكد ذلك ابن منظور في الرواية التي أوردها فقال : "قال أبو زيد: أهل الحجاز وهذيل، وأهل مكة والمدينة لا ينبرون وقف علينا عيسى بن عمر فقال: ما أخذ من قول تميم إلا بالنبر وهم أصحاب النبر، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا"[24].

قال : "وقال أبو عمر الهذلي : قد توضيت فلم يهمز وحولّها ياء وكذلك ما أشبه هذا من باب الهمز"[25].

يفهم من العبارة السابقة أن لهجة تميم تحقيق الهمز ولهجة قريش تسهيلها، وقد أخذت العربية المشتركة تحقيق الهمز من تميم، وأصبح الخاصة من العرب مهما اختلفت قبائلهم يلتزمون تحقيق الهمز في الأسلوب الجدي من القول من شعر أو خطابة أو نثر حتى القبائل الحجازية، فهي وإن كانت في لهجات الخطاب تسهل الهمز إلا أنها التزمت تحقيقه في الأساليب الأدبية، وهذا هو ما أشارت إليه الرواية وقولها: (وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا". وقد عقب الدكتور إبراهيم أنيس على هذه الرواية بقوله: "فليس لهذا الاضطرار من معنى سوى أنهم كانو يهمزون حين يلجأون إلي اللغة النموذجية وفي المجال الجدي من القول"[26].

وخلاصة ما تقدم أن الذين ذهبوا من المحدثين إلى أن لهجة قريش هي اللغة العربية المشتركة قد جانبهم الصواب فيما ذهبوا إليه، فقد اتضح أن هذه اللغة ليست لهجة قريش وحدها، ومن أدلة ذلك وجود الهمز في الفصحى وقريش لا تهمز.

وبناء عليه فإننا نعتقد أن الفريق الآخر من المحدثين أكثر توفيقا وأقرب إلى وجهة النظر اللغوية، فقد ذهب هؤلاء إلى أن العربية المشتركة مزيج من

اللهجات العربية. وهي وإن قامت في مرحلة تكوينها على أساس لهجة قريش إلا أنها استمدت كثيرا من خصائصها من اللهجات العربية المختلفة، واستمرت على هذا الوجه تنمو وتزدهر إلى أن تكون إطارها العام وأصبح لها كيان مستقل يعيش إلى جانب اللهجات المختلفة، ويصطنع في المجال الجدي، بينما نصطنع اللهحات في شؤون الحياة العامة.

وممن اتجه هذا الاتجاه الدكتور إبراهيم أنيس الذي تناول في حديثه نشأة اللغة العربية المشتركة في مكة عندما هيئت لها الظروف والأسباب حيث يقول: "فكان أن نشأت بها لغة مشتركة أسست في كثير من صفاتها على لهجة مكة. ولكنها استمدت أيضا الكثير من صفات اللهجات التي كانت تفد إليها، ثم نمت هذه اللغة مع الزمن وتبلورت مسائلها وأصبح لها كيان مستقل عن كل اللهجات ثم انتشرت مع القبائل والوفود حتى انتظمت جميع أنحاء شبه الجزيرة، وأصبحت اللغة التي ينظم بها الشعراء ويخطب بها الخطباء والتي تصطنع في كل مجال جدي من مجالات القول، فهي اللغة الأدبية النموذجية التي كانت محل الإعجاب والتقدير من العرب جميعا"[27].

وعلى هذا الأساس فاللغة المشتركة عنده مزيج منسجم من القواعد والأصول أخذت مع الزمن هذا الشكل العام، فلا تدّعيها لنفسها قبيلة من القبائل ولا يقتصر شأنها على بيئة بعينها من بيئات العرب القدماء.

وقد تم تكوينها قبل الإسلام وأصبحت لغة العرب جميعا وأنزل القران الكريم بها ليفهمه جميع الناس في شتى القبائل العربية فلا يمثّل القرآن لغة قريش وحدها كما يتردد أحيانا في بعض الكتب والروايات وإنما يمثل اللغة المشتركة بين العرب جميعا لغة الأدب من شعر وخطابة وكتابة.

ويستقرىء الدكتور داود عبده نصوص العربية الفصحى فيلاحظ عدم اطراد قواعدها في بعض الأحيان، ويسوق الأمثلة على ذلك، ويتخذ منها دليلا على أن الفصحى ليست إلا مزيجا من لهجات متعددة فلو كانت لهجة واحدة كما ذهب بعض العلماء لجاءت قواعدها مطردة يقول الدكتور عبده : "إن استقراء النصوص في الفصحى يشير إلي وجود مثل هذه القواعد المتناقضة وكثير غيرها، مما لا يدع مجالا للشك في أن العربية الفصحى ليست لهجة واحدة بل مزيجا من اللهجات"[28].

ويتخذ الدكتور عبده الراجحي موقفا يتفق في بعض جوانبه مع ما تقدم ويختلف عنه في جوانب أخرى.

فهو حين يستعرض أقوال القدماء يلاحظ أنهم يجعلون لهجة قريش وحدها هي اللغة العربية المشتركة، وعندما يبحث عن أسباب هذا الحكم، يجد أنها نابعة

من تمجيدهم للهجة قريش التي اكتسبت ذلك لكون النبي صلي الله عليه وسلم قرشيا، ثم ينتقل لمناقشة آراء المحدثين فيرى أنهم ساروا في الطريق ذاتها التي سلكها القدماء ويستشهد بأقوال كثير منهم فيلاحظ أنها ترديد لأقوال القدماء ولا تستند إلي دليل لغوي.

ويخلص الدكتور الراجحي بعد ذلك إلى تقديم رأيه الذي يعتقد فيه أن اللغة العربية المشتركة مزيج من اللهجات العربية، وفي ذلك يتفق مع بعض المحدثين كما قدمنا قبل سطور، لكنه يختلف عنهم عندما يذهب إلى أن هذه اللغة المشتركة لا تنتسب إلى قبيلة بذاتها لكنها تنتسب إلى العرب جميعا، ما دامت النصوص الشعرية والنثرية لا تكاد تختلف فيما بينها، وهذه النصوص كما يفهم ليست قرشية أو تميمية أو هذلية فقط، بل هي من قبائل مختلفة . . . ومع وجود هذه اللغة المشتركة احتفظت اللهجات المختلفة ببعض خصائصها اللهجية، ومع دخول بعض هذه الخصائص إلى اللغة الفصحى نقول: إن خصائص لهجة قريش ليست هي الغالبة على غيرها[29].

وبعد: فمن خلال هذا التجوال في مواقف علماء العربية قديما وحديثا يتضح تباين وجهات نظرهم في تكوين اللغة العربية المشتركة. والرأي الذي يطمئن إليه القلب هو أن اللغة المشتركة مزيج من اللهجات العربية لكننا لا نستطيع الإقرار بأن لهجة قريش هي الغالبة في هذا المزيج فحتى لو سلمنا بأن العربية المشتركة قامت على أساس من لهجة قريش بعد امتزاجها بعناصر من اللهجات الأخرى فإنه لم يغب عن بالنا بأن هذا المزيج بعد تكونه لا ينتسب إلى بيئة لغوية معينة. أضف إلى ذلك أن انتشار هذا المزيج يؤدي مع الزمن إلى زيادة الصفات التي يستعيرها من صور اللهجات المحلية، على مر الأيام، وهذا لا يساعد على غلبة لهجة قريش.

إن الحكم الذي ينص على أن لهجة قريش هي الغالبة في هذا المزيج حكم ترجيحي يعتمد على أقوال الرواة، ولا يستند إلى دليل علمي، ذلك أنه لم تتوفر لدينا نصوص لغوية من لهجة قريش، أو من غيرها من اللهجات العربية قبل تكوين العربية المشتركة، كي نستطيع من خلالها، أن نتبين القدر الذي ساهمت فيه كل لهجة من هذه اللهجات في اللغة العربية المشتركة، وطالما أن الأمر على هذا الوجه فإن القول بغلبة لهجة قريش يبقى ضربا من الحدس والتخمين.

أما القول بأن العربية الفصحى مزيج من اللهجات فأمر تشهد به النصوص اللغوية، وهذا هو الجانب الأهم في هذه القضية لأنه جانب حيّ وعمليّ، وسوف يتضح من خلال دراستنا لبناء الجملة العربية في السطور التالية.

الصفات اللهجية في بناء الجملة في العربية الفصحى :

من الأمور المسلم بها في الدراسات اللغوية الحديثة أن اللغة ظاهرة اجتماعية، ترتبط بالمجتمع، وتعيش في أحضانه، تتقدم بتقدمه، وتتأخر بتأخره، وكل لغة في هذا العالم تتغير بلا انقطاع، وتتطور على الدوام.

وهذا التغير يحدث في كل عصر من عصور اللغة، وعلى مختلف المستويات. ففي كل زمن تظهر مفردات وتراكيب جديدة، وتختفي أوتهمل مفردات وتراكيب أخرى. ويتم ذلك دون قصد من أصحاب اللغة، بل دون شعورهم[30].

وتتطور اللغة لأجل أن تصبح قادرة على تلبية حاجات المجتمع، واستيعاب جوانب الحياة المختلفة، فإذا تغيرت طبيعة الحياة لدى الأفراد، نتيجة تغير في القيم أو الحضارة أو المعتقدات، فإن ذلك يستلزم أن تتولد ظواهر لغوية جديدة، وتتغير نظم سابقة، لكي تصبح اللغة أكثر اتساعا، وأعظم مقدرة بمعنى أن مظاهر التطور تحدث في اللغة استجابة لحركة الحياة، وعليه فلا يعقل أن تبقى لغة على حالة من الثبات والجمود عبر العصور والأزمان. وتستطيع النظرة التاريخية على هذا الأساس تجلية ملامح كثيرة من الظواهر اللغوية، عندما نلاحظ في اللغة أحيانا صورتين أو أكثر لظاهرة تمثل إحداها فترة تاريخية أقدم من الصور الأخرى[31].

واتصال اللغة بلهجاتها أو بغيرها من اللغات ينجم عنه عملية تأثير وتأثر تؤدي في الغالب إلى انتقال كثير من الصفات إلى تلك اللغة، ويكون ذلك رافد آخر من روافد التطور في اللغة، وتصبح الدراسات اللغوية المقارنة في هذه الحالة ضرورية لأنها تساعد في تفسير تلك الظواهر اللغوية.

واللغة العربية ليست بدعا بين اللغات، بل هي لغة يجري عليها ما يجري على اللغات الأخرى من قوانين التغيير، وكل مرحلة من مراحلها تمثل حلقة في سلسلة حلقات طويلة من التطور. فلا يجوز- والحالة هذه- دراسة مراحلة بمنأى عن غيرها من المراحل، أو بمعزل عن الدراسات المقارنة.

ومن المعروف أن اللغة العربية الفصحى قد اتصلت باللهجات القديمة وتفاعلت معها واستوعبت الكثير من صفاتها حتى أصبحت مزيجا من الخصائص اللهجية، وقد ساعد ذلك على ثرائها[32] في مختلف المستويات اللغوية، سواء في ذلك المستوى الدلالي أو النحوي. ويهمنا في هذه الدراسة ما يتصل بالجملة

العربية حيث وجد لبنائها في بعض الحالات أكثر من صورة. وقد تعايشت هذه الصور المتعددة في سلام ووئام، إلى أن جاء عصر تدوين اللغة وأخذ علماء اللغة يضعون قواعدهم ويحاولون فرضها، فإذا وجدوا مثلا مخالفا أخضعوه لتأويلاتهم النحوية، وإلا حكموا عليه بالشذوذ غير آبهين بما يمكن أن يحدث من تطور لبناء الجملة في تلك الفترة الزمنية الطويلة التي أطلقوا عليها عصور الاحتجاج والتي امتدت قرونا عديدة.

ولا شك أن التعرف على هذه الصفات اللهجية في بناء الفصحى والاستفادة من النظرة التاريخية المقارنة في دراستها يساعد على فهم بناء الجملة بشكل أفضل بعيدا عن التعليل والتأويل. ولنضرب لذلك المثل التوضيحي التالي: من المعلوم أن للجملة الفعلية البسيطة المكونة من فعل وفاعل صورتين:

الأولي: يكون الفعل فيها خاليا من علامتي التثنية والجمع فيقال حضر الطالبان، حضر الطلاب، حضرت الطالبات، وهذه هي الصورة المشهورة في كتب النحاة وهي الأوسع انتشارا بين العرب.

الثانية: يتطابق الفعل فيها مع الفاعل، فتلحقه علامة التثنية مع الفاعل المثنى وتلحقه علامة الجمع إذا كان الفاعل جمعا فيقال: حضرا الطالبان، حضروا الطلاب، حضرن الطالبات. وقد اشتهرت هذه الصورة الثانية في كتب النحو بلغة (أكلوني البراغيث) ونسبت إلى لهجات متعددة منها: لهجة بلحارث وطي وأزد شنوءة.

وجد النحاة أن الصورة الأولى تنسجم مع قواعدهم، لكنهم عندما نظروا في الصورة الثانية رأوا أنها لا تتفق معها، فحاولوا إخضاعها لمنطقهم، ولكنهم اختلفوا في تأويلاتهم وتعليلاتهم حيث ذهب فريق منهم إلى أن ألف الاثنين وواو الجماعة ونون النسوة ضمائر في محل رفع فاعل، أما الاسم الظاهر فيقرب على أنه بدل أو مبتدأ مؤخر.

و ذهب فريق آخر إلى أنها حروف أو علامات للتثنية والجمع وفي هذه الحالة يكون الاسم الظاهر هو الفاعل[33]. وعندما نظر هذا الفريق في قوله تعالي:(ثم عموا وصموا كثير منهم....) (سورة المائدة،الآية: 71).[34]

أجازوا تنازع العاملين (عموا وصموا) في الاسم الظاهر (كثير)، وجعل الواو في الفعلين علامة للجمع، وتقدير ضمير مستتر في الفعل المهمل (مع أن الضمير موجود وهو واو الجماعة إلا أنهم اعتبروه علامة للجمع) وعدوا ذلك من غرائب العربية[35].

إلى هذالحد وصل بهم التعليل والتأويل واحترام القواعد، مع أن الأمر أبسط مما ذهبوا إليه. فالنظرة التاريخية المقارنة توضح أن لغة (أكلوني البراغيث) تمثل الصورة الأقدم في العربية حيث إن الأصل في اللغات السامية تحقيق المطابقة بين الفعل والفاعل[36]، ثم تطور هذا الأصل فتكونت الصورة الأولى التي يكون فيها الفعل مفردا مع الفاعل في كل الأحوال وانتشرت هذه الصورة الأولى التي يكون فيها الفعل مفردا مع الفاعل في كل الأحوال بين غالبية العرب. على أن صورة الأصل لم تمت، وبقيت تستعمل في بيئة أو بيئات محافظة منعزلة، وعندما خرج الرواة واللغويون لجمع اللغة في مرحلة تدوينها، رووا الصورتين، ووضع النحاة قواعدهم على الأعم الأغلب. وعند ما وجهوا بالصورة الثانية حاولوا إخضاعها لمنطقهم. فجنحوا إلى التعليل والتأويل على الوجه المتقدم، متناسين نواميس التطور التي تجري على بناء الجملة العربية (وعلى غيرها من الظواهر اللغوية بالطبع) استجابة لنزعة معيارية ، مع أن مهمة اللغوي تفسير الظواهر اللغوية لا تعليلها، وبذلك يمكن النظر إلى الصورتين على أنهما تمثلان طورين من أطوار اللغة: طورا سابقا وطورا لاحقا أو طورا قديما وطورا جديدا. ولعل الأخذ بالصور الجديدة يساعد على تخليص قواعد النحو من هذا التشعب الذي يثقلها، ومن كثير من صور التقدير وذيول الخلاف وتعدد الوجوه والأقوال، ويخفف من وطأة المتاعب التي تثقل كاهل الدارسين. أما الصور الأخرى من الظاهرة، وهي التي تمثل مراحل زمنية سلفت فينص عليها في تاريخ النحو، ويستأنس بالعلاقة بين كل صورة وتاليتها في رسم اتجاهات التطور النحوي[37].

ومهما يكن من أمر فإن جهود النحويين العاملة على طرد القاعدة وميلهم إلى التقنين والتنظيم أدت بهم إلى طمس هذه الصفات اللهجية[38] وعدم الإشارة إليها إلا في النادر من الأحيان. وقد أثر هذا المنهج على نظرتهم إلى اللهجات فلم يمنحوها الاهتمام الكافي، ولم يتوفروا على دراستها، ولم يرووا إلا النزر اليسير من صفاتها. وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت دراسة اللهجات القديمة في عصرنا ومحاولة الاهتداء إليها من الأمور العسيرة لأن المادة اللغوية الضخمة التي بين أيدينا لا تعين على ذلك[39].

ومما يزيد الأمر مشقة أن هذه الإشارات اللهجية المروية كانت في غالبيتها تتصل بالدراسات الصوتية والدلالية وأن القليل منها يتصل بالجملة، ذلك لأن بناء الجملة أقل الظواهر اللغوية تطورا من وجهة النظر اللغوية الحديثة[40].

ففي الختام نقول: يعرض البحث نظرة علماء العربية إلى اللهجات : فقد أدرك المحدثون أهمية اللهجات في فهم طبيعة الفصحى، فأقبلوا على دراستها ، وألفوا الكتب فيها، وساهمت الجامعات والمجامع اللغوية في أنحاء العالم العربي في

هذا الشأن انطلاقا من اعتقادهم بأن التعرف على الخصائص المشتركة للهجات يساعد على تقريب المسافة فيما بينها، ويؤدي إلى تعميق التفاهم بين أبناء الأمة العربية، وتناول علماء العربية القدامى اللهجات في دراستهم اللغوية ، ولكن تناولهم إياها جاء على شكل إشارات متناثرة في كتبهم ، ولم يكن دراسة متكاملة تبين صفاتها أو أساليبها في التعبير أو غير ذلك. وقد قام منهجهم في جمع اللغة على الأخذ عن قبائل معينة دون سواها وقادنا ذلك إلى التساؤل: هل اللغة الفصحى هي لغة قريش وحدها كما هو مشهور أم هي مزيج من اللهجات. وقد جاءت هذه الدراسة تطبيقا عمليا لهذه الإجابة فقد اتصلت العربية الفصحى بلهجاتها على مر العصور، وكان من نتيجة ذلك انتقال كثير من الصفات إلى بناء الجملة الفصحى.

المراجع:

1- انظر: د/إبراهيم أنيس، *في اللهجات العربية* (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، 1965م) ص17-18، وانظر أيضا: د/رمضان عبد التواب، *فصول في فقه اللغة* (القاهرة: دار التراث، 1977م) ص59.
2- د/ عبد الصبور شاهين، *في علم اللغة العام* (القاهرة: مؤسسة الرسالة، 1980م) ص225.
3- فندريس، *اللغة*، ترجمة عبد الحميد الدواخيلي ومحمد القصاص (القاهرة: كتبة الانجلو المصرية، 1950م) ص213.
4- ب. م . جونستون ، *دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية*، ترجمة د/ أحمد الضبيب (الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة ملك سعود، 1975م) ص12.
5- المصدر نفسه، ص16- 17.
6- غالب فاضل المطلبي ، *لهجة تميم : أثرها في العربية الموحدة* (بغداد : وزارة الثقافة والفنون، 1978م) ص32.
7- د/ إبراهيم، *أنيس في اللهجات العربية*، ص12- 13.
8- يوهان فك، *العربية*، ترجمة د/ رمضان عبد التواب (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1980م) ص9.
9- د/ حسام النعيمي، *الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني* (بغداد: دار الرشيد، 1980م) ص72.
10- محمد بن يزيد المبرد، *الفاضل*، تحقيق عبد العزيز الميمني (القاهرة: دار الكتب ، 1956م) ص113.
11- أبو الفتح عثمان بن جني، *الخصائص*، ج2، تحقيق محمد على النجار (القاهرة : دار الكتب، 1952م) ص12.
12- د/ إبراهيم أنيس ، *في اللههجات العربية* ، ص86-87.
13- د/ محمد صلاح الدين مصطفى ، *النحو الوصفي من خلال القرآن الكريم* (الكويت: مؤسسة علي جراح الصباح، بدون تاريخ) ص16، 23.
14- د/ تمام حسن، *اللغة بين المعيارية والوصفية* (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، 1958م) ص24، 25.

15- د/ إبراهيم أنيس، *مستقبل اللغة العربية المشتركة* (القاهرة : معهد الدراسات العربية، 1960م) ص3.
16- المصدر نفسه، ص5 ، 6.
17- أحمد بن فارس، *الصاحبي في فقه اللغة* ، تحقيق د/ مصطفى الشويمي (بيروت: مؤسسة بدران، 1964م) ص52.
18- السيوطي، المزهر، ج1، ص211.
19- المصدر نفسه، ج1، ص211.
20- د/ علي القاسمي ، *علم اللغة وصناعة المعجم* (الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، 1975م) ص88.
21- د/ على عبد الواحد وافي ، *علم اللغة* (القاهرة: دار نهضة مصر، 1967م) ص106-108.
22- د/ حسن عون، *اللغة والنحو* (الاسكندرية ، 1952م) ص42.
23- د/ رمضان عبد التواب ، *المدخل إلى علم اللغة* (القاهرة: مكتبة: الخانجي ، 1982م) ص168.
24- جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، *لسان العرب* (بيروت: دار صادر و دار بيروت ، 1968م) ج1، ص22. 24
25- المصدر نفسه.
26- د/ إبراهيم أنيس ، *في اللهجات العربية* ، ص87.
27- د/ إبراهيم أنيس ، *مستقبل اللغة العربية المشتركة*، ص9.
28- د/ داود عبده ، *أبحاث في اللغة العربية* (بيروت: مكتبة لبنان ، 1973م) ص80.
29- د/ عبده الراجحي ، *اللهجات العربية في القراءات القرآنية* (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1979م) ص 48- 49.
30- التهامي الراجي الهاشمي ، *بعض مظاهر التطور اللغوي* (الرباط ، دار النشر المغربية ، 1978م) ص10، 11.
31- د/ رمضان عبد التواب، *التطور اللغوي* (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1983م) ص7.
32- د/ التهامي الراجي الهاشمي، *بعض مظاهر التطور اللغوي*، ص34 ، 35.
33- ابن هشام، *أوضح المسالك*، ج1، شرح محمد محي الدين عبد الجميد (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، 1974م) ص19-106. وانظر أيضا*الأشموني ، شرحه على ألفية ابن مالك*، ج1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1955م) ص170، 171.
34- وانظر أيضا الخضري ، *حاشية على ابن عقيل* (القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، بدون تاريخ) ج1، ص161، 162.
35- الصبان ، *حاشيته على ابن عقيل* (القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، بدون تاريخ) ص47. ويعنون بقولهم (من غرائب العربية) وجوب استتار الضمير في الفعل عموا أو صموا.
36- د/ رمضان عبد التواب ، *فصول في فقه العربية* ، ص81.
37- د/ نهاد الموسى، *في تاريخ العربية* (عمان: الجامعة الأردنية ، 1976م) ص209.
38- يوهان فلك، *العربية* ، ص9.
39- د/ إبراهيم السامرائي، *فقه اللغة المقارن* (بيروت: دار العلم للملايين، 1978م) ص262.

40-د/ علي عبد الواحد وافي ، *نشأة اللغة عند الإنسان والطفل* (القاهرة: مكتبة غريب، 1971م) ص117، 118.